الفروق السيكلوجية بين الأمم

للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

الفروق الذكائية

في سنة ١٩٢٨ دعت وزارة المعارف المصرية الدكتور كلاباريد أستاذ علم النفس بجامعة جنيف لدراسة حال التعليم في مصر ومعرفة مواضع النقص فيه ، واقتراح الإصلاحات الضرورية للمناهج وطرق التدريس ونظام المدارس على أسس من التربية وعلم النفس . وكان مما قام به الأستاذ هو إجراء بحوث اختبارية في الذكاء على طوائف من التلاميذ في جميع مراحل التعليم لمعرفة مستوى ذكاء التلميذ المصري واتجاه نموه العقلي . وقد أجرى الأستاذ فعلاً عدة تجارب - بمساعدة عدد من الأساتذة المصريين - لقياس الذكاء ، واستخدم أنواعاً مختلفة من المقاييس من بينها مقياس[1] الدكتور بالارد . وكان هذا المقياس قد جرب في انجلترا وفي البلجيك وقنن . ولكن الأستاذ أدخل عليه بعض التعديلات ليناسب الناشئة المصرية . وقد أظهرت النتائج التي أسفرت عنها اختبارات الذكاء أن مستوى الذكاء عند التلاميذ المصريين — ما عدا البنات اللواتي تتراوح أعمارهن بين الثامنة والعاشرة — أقل بكثير من مستوى الذكاء عند التلاميذ البلجيك والإنجليز

وقد استرعت هذه النتيجة انتباه الدكتور واهتمامه ، فجعلته يحاول معرفة هذا التأخر الذكائي ، فذهب يفرض له فروضاً ، وشرع في درسها ، وكان من بين الفروض التي افترضها ورفضها أن سبب هذا النقص هو انحطاط في فطرة الطفل المصري . وهو يقول في تقريره : « هذا وليس في الأسباب ما يحدو بنا إلى الاستناد إلى الغباوة الفطرية كخسيصة في الطفل المصري ، لأننا إذا راعينا النتائج الفردية ، ولم نقتصر على المتوسطات وحدها ، فإنا واجدون في جميع أدوار أعمار الأطفال طائفة من نتائج اختبارهم أحسن ما تكون . وفي هذا ما لا يبرر الاستناد إلى الانحطاط الفطري » ثم هو يذهب فيبحث فروضاً أخرى ويرى « أن تأثير الوسط المحيط هو ما يصح الاستناد إليه في كثير من الوثوق والتأكد لتعليل ذلك الانحطاط . فقد دل عدد كبير من البحوث التي أجريت على أن مستوى عقل الطفل يترتب إلى حد ما على الوسط الاجتماعي الذي يمت إليه بصلة ما ، وعلى وسطه العائلي الخاص أيضاً . وبدهي أن الأطفال الذين في أسرة مثقفة يعلو مستواهم على مستوى غيرهم » ثم يعود الدكتور فيؤكد أن الوسط تقع عليه إلى حد كبير مسئولية رداءة النتائج العامة التي وصل إليها في اختبار ذكاء الطفل المصري ، ومقارنتها بذكاء الطفل الأوربي ، ويشير إلى سبب آخر من أسباب الانحطاط الذكائي خاص بالتجارب التي أجراها ، ويقول : « إن نصف النتائج التي حصلنا عليها عن أطفال وشبان من تلاميذ المدارس الأولية والفنية أو مدارس المعلمين الأولية ، أي من وسط اجتماعي متواضع . وقد قلنا إن نتائجهم أحط بكثير من نتائج المدارس الابتدائية والثانوية باعتبار التساوي في السن بينهم جميعاً ، وأنها كانت لهذا السبب باعثاً على هبوط المتوسط العام . ولا شك في أن ما أيدته اختباراتنا من نقص النمو العقلي يعزى في بعضه إلى هذه الحال . والواقع أن الأطفال والشبان المصريين من الطبقات الدنيا تنقصهم الأسباب المنشطة للعقل ، والبواعث التي تستثير دفين الذكاء ، كما تنقصهم لتفتيق أذهانهم تلك الفرص التي كثيراً ما تسنح للأطفال الصغار الأوربيين في حياتهم »

سام الأستاذ القباني بنصيب وافر في إجراء الاختبارات التي قام بها الدكتور كلاباريد ومراجعة نتائجها ، ولكنه لم يقتنع بصحة هذه النتائج ، لأنه كان شاكاً في صلاحية مقياس بالارد لاختبار ذكاء التلاميذ المصريين . فالاختلاف الكبير بين البيئة المادية والاجتماعية المصرية وغيرها من البيئات الأوربية ، وهذا ما يجعل الأسئلة التي يختبر بها ذكاء التلاميذ الإنجليز أو البلجيك لا تناسب بالضرورة التلاميذ المصريين . من أجل هذا اتجهت عناية الأستاذ لدراسة الذكاء المصري ، فأجرى عدة بحوث كانت أغراضها : التحقق من صلاحية كل سؤال من أسئلة بالارد لاختبار الذكاء في مصر ، وحذف الأسئلة التي يثبت عدم صلاحيتها وإضافة أسئلة غيرها لتكوين مقياس مصري للذكاء ، وإجراء هذا المقياس الأخير على تلاميذ المدارس الابتدائية ومن في مستواهم للوقوف على حقيقة عقليتهم[1] . وقد نجح الأستاذ في تحقيق هذه

(١) Group Tests of Intelligence, by P. B. Ballard

(١) هذا اقتباس من كتاب « مقياس الذكاء » في المدارس الابتدائية بالقاهرة للأستاذ اسماعيل القباني

الأغراض ، وكأنه بعمله هذا أراد أن يختار من التلاميذ المصريين من تشابه بيئته — المدرسية والاجتماعية إلى حد ما — بيئة التلاميذ الأوربيين ، حتى تكون المقارنة بين متوسط الذكاء المصرى والذكاء الأوربى مقارنة عادلة . وقد كشفت اختبارات الأستاذ عن متوسط لذكاء تلاميذ المدارس الابتدائية أرقى من ذلك الذى وصل إليه كلاپاريد ، كما أيدت اختباراته نظرية تأثير الوسط فى الذكاء ، فقد وجد أن المدارس التى يغلب على تلاميذها أن يكونوا من أوساط اجتماعية راقية تتفوق فى الذكاء فى كل عمر على المدارس التى يغلب على تلاميذها أن يكونوا من أوساط اجتماعية متواضعة ، وأن الفرق بين ذكاء هذين النوعين من المدارس ليس كبيراً إذا قيس بالفرق بين متوسط ذكاء كل منهما ومتوسط ذكاء المدارس الأولية

رأينا إذاً كيف تتعسر المقارنة بين متوسط ذكاء أمة ومتوسط ذكاء أمة أخرى لاختلاف البيئات ، هذا الاختلاف الذى له أثره فى تنشيط الذكاء الفطرى وشحذه ، ولصعوبة إيجاد « عينات » ممثلة كل التمثيل لأفراد الأمة وأوساطها المختلفة تجرى عليها اختبارات الذكاء . وعلماء النفس يدركون هذا التعسر ويقرّونه ، ولكنهم بالرغم من ذلك حاولوا التغلب عليه ودراسة الفروق الذكائية بين الأمم ، فالتجارب التى أجريت فى الولايات المتحدة لقياس ذكاء الزنوج ومقارنته بذكاء الأمريكيين البيض أسفرت عن أن الزنوج أقل ذكاء من الأمريكيين فى كل المقاييس التى تتطلب حل معضلات معنوية مجردة abstract بينما يقربون من الأمريكيين أو يشابهونهم فى الذكاء الذى يحتاج إليه فى حل المعضلات العملية أو المحسوسة ، كما تدل على ذلك نتائج المقاييس العملية Performance Tests ومما لا جدال فيه أن القدرة على التفكير المعنوى المجرد والحكم تتأثر إلى حد كبير بالتربية والثقافة العامة ، ونوع العمل الذى يقوم به الفرد . ومهما يكن السبب — وراثياً أو بيئياً — فالحقيقة الواقعة هى أن الزنوج أحط ذكاء كجماعة من الأمريكان البيض

فى أثناء الحرب الكبرى الماضية قيس ذكاء أفراد الجيش الأمريكى ، وكان من بينهم جماعات ذوو جنسيات أوربية مختلفة : انجليز ، وهولانديون ، ودنماركيون ، وإيطاليون الخ . وقد استغل علماء النفس نتائج اختبارات الذكاء فى معرفة ما إذا كانت هناك فروق ذكائية بين الأمم الأوربية ممثلة فى جماعات الجيش الأمريكى . درست النتائج دراسات إحصائية مطولة ، وكان ترتيب الأمم ترتيباً تنازلياً بحسب الذكاء هو[1] :

(١) انجلترا (٢) اسكوتلندا (٣) هولندا (٤) كندا (٥) ألمانيا (٦) الدانمرك (٧) السويد (٨) النرويج (٩) إرلندا (١٠) النمسا (١١) تركيا (١٢) الروسيا (١٣) البلجيك (١٤) اليونان (١٥) إيطاليا (١٦) بولندا

والمتأمل فى هذا الترتيب يرى أن سكان الأقطار الأوربية الشمالية (الجنس الشمالى) أذكى من سكان الأقطار الأوربية الوسطى (الجنس الألپى) وهؤلاء أذكى من سكان أقطار البحر الأبيض المتوسط . وقد وجّهت انتقادات كثيرة لهذه النتيجة السابقة ، أهمها هو أن هذا الترتيب لا يصح أن يؤخذ على أنه ترتيب للذكاء الفطرى عند هذه الأمم . وهذا انتقاد وجيه ، ولكن أقل ما يدل عليه هذا الترتيب هو مقدار تأثير التربية المدرسية والثقافة الاجتماعية فى إظهار ذكاء الأمم

وثمة اختبارات أخرى أجريت على صبيان ولدوا فى الولايات المتحدة وآباؤهم من جنسيات مختلفة ، وكانت أعمارهم تتراوح بين الخامسة والنصف وبين الثامنة عشرة . وكان هؤلاء الصبيان يتعلمون فى المدارس العامة Public Schools[2] . وقد بلغ عدد من اختبر ذكاؤهم ٥٥٠٤ تلميذ ، وكانت تربيتهم المدرسية متشابهة بصفة عامة ، كما كانوا يعيشون فى بيئات متجاورة ومتقاربة الثقافة . وكانوا جميعاً يعرفون اللغة الإنجليزية بجانب لغتهم الأصلية . وقد رتبت نتيجة ذكائهم ترتيباً تنازلياً ، فكان الترتيب كما يأتى :

اليهود البولنديون ، السويديون ، الإنجليز ، اليهود الروس ، الألمان ، اللتوانيون ، الإرلنديون ، الاسكنديون البريطانيون ، الروس الخلص ، البولنديون الخلص ، الإغريق ، الإيطاليون ، الاسكنديون الفرنسيون ، البرتغاليون . وسأترك للقارئ المقارنة بين هذه النتيجة ونتيجة الاختبارات السابقة لها

هذا وخلاصة القول هى أن علماء النفس متفقون على أن الاختبارات التى أجريت حتى الآن تدل على وجود فروق ذكائية بين الأمم المختلفة . ولكنهم مختلفون فى سبب هذه الفروق ؟ أهى فطرية جنسية ، أم بيئية ثقافية ، أم هما معا ؟ والجمهور على الرأى الأخير .

عبد العزيز عبد المجيد

(١) هذا الترتيب مقتبس من كتاب A Study of American Intelligence, by C. Brigham

(٢) الاصطلاح Public schools فى انجلترا يعنى مدارس أولاد الأعيان ، وفى أمريكا يعنى مدارس أولاد العامة